# المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الرابع عشر بعد المئة

١ مايو سنة ١٩٤٩ — ٣ رجب سنة ١٣٦٨


# طوفان القدم

## صراع بين اللاهوت والعلم

— ٣ —

### طوفان نوح

### ومحاولة التوفيق بين اللاهوت والعلم

نظرية أن المتحجرات سببها الطوفان ـ قبول هذه النظرية عند الكاثوليك والبروتستانت ـ بيرنت ، وبستون ، وودوارد ، مازورييه ـ إنكريز ماذر ، شوخزر ، نظرية فولتير في المتحجرات — جهود متأنية في سبيل تنوير رجال الكنيسة عن طريق النظر العلمي ـ تقدم العلم بتؤدة ـ أعمال كوفييه وبوكلند ـ معارضة غرانفيل بن ـ انحياز سدجوك وبوكلاند الى الناحية السلبية ـ تسليم اللاهوتيين ـ بقايا المعتقد القديم ـ القضاء الأخير على النظرية التقليدية باستكشاف القصة الكلدانية عن الطوفان ـ نتائج المعارضة اللاهوتية للعلم .

قبل نهاية المعركة التي أتينا على وقائعها في الصفحات السابقة بزمان طويل ، بل في عهد مبكر جداً ، اتضح لبعض المدافعين عن الأرثوذكسية ممن امتازوا بعمق الفكرة والتبصر ، ما في الأسلحة المدرسية من الوهن وقلة الجدوى . ولما تجلت لهم تلك الصعوبات التي اكتنفت الحملة اللاهوتية المألوفة على العلم ، بادر

تشير منهم إلى عمل على عقد هدنة . بذلك بدأ الطور الثالث من أطوار تلك الحرب — طور محاولة في سبيل التفاهم والتوفيق بين الناحيتين .

أما الوسيلة التي لجأ إليها هؤلاء « التفاهميون » أو « التوفيقيون » فانحصرت في القول بأن الحفريات هي من مخلفات طوفان نوح .

كان هذا الاتجاه اتجاهاً قويّاً ، بمقتضى أنه قائم في الظاهر على نص الكتب المقدسة . وكان له ، بالإضافة إلى ذلك مبرر علمي ذو بال ، بحكم أن بعض آباء الكنيسة كانوا قد قالوا بأن البقايا الحفرية ، حتى تلك التي وجدت في أشمخ الجبال ، إنما هي حيوانات أبادها الطوفان . وقد استمسك « ترتليان » بهذه النظرية استمساكاً كلّياً ، كما ظن القديس أوغسطين أن سناً حفرية عثر عليها في شمال أفريقية ، هي واحدة من أسنان عمالق من العمالقة التي نوهت بهم الكتب المقدسة .

* * *

في القرن السادس عشر خاصة ، اتجه الرأي نحو هذه النظرية وأضفى عليها أولئك الذين اقتنعوا بتفاهة التعليلات المدرسية ، قيمة ووزناً كبيراً . ولقد قبلها رجال من أعظم رجال المفكرين ، الكاثوليكي والبروتستانتي . وكان مارتن لوثر أعظم رجال اللاهوت الحديث الذين روّجوا لهذه النظرية . فقد وضح له أن العبارات والاستطرادات المدرسية ، لا تستطيع أن تواجه الصعوبات التي تثيرها قضية الحفريات ، فنزع بالطبع إلى إثبات أن أصلها إنما يرجع إلى طوفان نوح .

بهذا سيطرت تلك الفكرة على العالم النصراني ، وزُيِّن للناس أنه ما من شيء في مستطاعه الوقوف في سبيلها . غير أنها قبل نهاية القرن السادس عشر اعترضتها بعض العقبات . فقد أوضح « برنارد باليسّي » ، وهو من أبعد علماء فرنسا نظراً وأدقهم ملاحظة ، كما أنه من أثبت النصارى عقيدة وإيماناً ، أن هذه النظرية فاسدة

من أساسها . وأظهر غيره من الباحثين ذوي النُّهى ، وبخاصة في إيطاليا ، صحة رأيه . ولكن ذلك كله ضاع هباءً وذهب سُدًى . تبدد كل جُهد بذله رجال طيبون ُمناه في محاولة الكف من تلك الأضرار التي رأوا أنها سوف تصيب الدين إذ ما ربط بنظرية علمية ، كان من المحقق أنها ستنفجر فتذهب أباديد . وظلت نظرية أن المتحجرات إنما هي بقايا الحيوانات التي أغرقها الطوفان ، العقيدة الراسخة للعديد الأكبر من زعماء اللاهوت زهاء ثلاثة قرون ، على أنها "النظرية المعقولة" وعلى أنها الطريق المختار للتقريب بين مقتضيات العلم والنصوص المقدسة . ومن أجل أن تؤيد هذه النظرية المقدسة ، حفزت الهمم وبذلت الجهود ، من جانب الكاثوليك والبروتستانت على السواء .

قبلها الأب البنديكتي "كالمت" في فرنسا وبشر بها في كتابه عن "الانجيل" . حدث ذلك في أوائل القرن الثامن عشر ، إذ مضى معتقداً أن عظام "المستودون" التي عرضها "مازوريه" هي عظام الملك "طوطوبوقوس" Teutobocus ، واتخذها شهادة حية على وجود العمالقة الذين ذكرتهم المقدسات ، وعلى أن سكان الأرض الأولين قد طاح بهم الطوفان .

ولكن أعظم مؤيدي هذه النظرية ظهر في انجلترا . ولقد رأينا من قبل ، كيف أن "توماس برنت" عند انتهاء القرن السابع عشر ، قد مهد الطريق في كتابه "النظرية المقدسة في الأرض" فنفى مستكشفات "نيوتن" وأظهر كيف أن الخطيئة قد حطمت أساس النور الأعظم ، كما رأينا أن "وستون" في كتابه "النظرية الجديدة في الأرض" بتسليمه بعض الشيء وقبوله مستكشفات "نيوتن" قد أدخل في الأرض مذنباً ساعد على إحداث الطوفان . ولكن "جون وودوارد" أستاذ كلية جرشام ، كان أبعد من هؤلاء أثراً وأعلى ذكراً . فقد كان زعيماً

من رجال الفكرة العلمية في جامعة كمبردج ، ومن كبار المنقبين عن الحفريات الصاعدين في تفسير معدنياتها وغوامضها ، فحاز بعلمه أسمى صنوف الاحترام والتبجيل. وفي سنة ١٦٩٥ نشر كتابه « تاريخ الأرض الطبيعي » ، فخدم به العلم من طريق أنه سلّم بحقيقة ثابتة ، وبذلك هدم الأساس الذي تقوم من فوقه النظرية القديمة في الحفريات . فقد أظهر أنها ليست من ألهيات الطبيعة ولا هي نماذج زج بها الخالق في تضاعيف الطبقات الأرضية لغرض غير مستبان ، بل إنها بقايا حقيقية لحيوانات كانت حية ، كما قال اكزينوفانس قبل ألفي سنة . وبذلك أدّى خدمة عظيمة للعلم وللدين . غير أن نصوص العهد القديم وقصة الطوفان وتلك العبارات المشروحة في رسالة القديس بطرس قد استقوت عليه بسلطانها العظيم ، فراح يقول بأن الحفريات قد خلفها طوفان نوح . ولقد ساعد سلطانه في أن يزود الحملة على العلم بقوة وعنفوان عظيمين : فعرض « مازوريه » عظام حوت عثر بها في فرنسا ، على أنها من عظام العمالقة الذين ذكرتهم المقدسات ؛ وفعل الأب طروبيا نفس الفعل في اسبانيا ؛ وأرسل إنكريز ماذر إلى انجلترا بقايا عثر بها في أمريكا مؤيداً بها نفس الاتجاه .

ومن أجل أن يتم تثقيف المؤمنين في العلم اللاهوتي ، علقت تلك العظام التي هي عظام العمالقة المذكورة في الكتب المقدسة وعرضت علانية في الأسواق . ولقد رأى جوريز بعضها معلقاً في كنيسة من كنائس مدينة والنس . وعمد هنريون مدفوعاً بقوة تلك العوامل اللاهوتية فوضع تواريخ حدد فيها هنريون جسوم أسلافنا في عصر قبل الطوفان ، فقضى بأن طول آدم كان ثلاثة وعشرين ومئة قدماً وتسع بوصات وأن طول حواء كان ثمانية عشرة ومئة وتسع بوصات وتسعة أجزاء من البوصة !!!

غير أن أعظم صدمة أدّيت للنظرية اللاهوتية قد جاءت من صقع آخر .

في سنة ١٧٢٦ استكشف شوخزر عظاية حفرية كبيرة ، فعرضها على الناس متخذاً منها شاهداً إنسانيًا على الطوفان . ولقد استقبل ذلك الاستكشاف ابتهاج بالتهليل في كل مكان ، فقد خيل إلى الناس أنه لا يثبت أن البشر قد أغرقهم الطوفان لا غير ، بل يثبت أيضاً أن هناك عمالقة عاشوا من قبله . وكوّن نظرية أن ينابيع الغور الأعظم قد فجرتها يد الله بفعل مباشر ، وأن هذا الفعل ، إذ وقع أول شيء على محور الأرض ، قد أوقف الأرض عن حركتها الدورانية ، وفجر ينابيع الغور الأعظم ، فثارت المياه المختزنة فيه ، وكان الطوفان . ولم تقف خدمته للعلم اللاهوتي عند هذا ، فإنه جهّز نسخة من الأناجيل زودها بعدد عظيم من الصور المحفورة التي تؤيد وجهة نظره ، وفرضها على القراء فرضاً وألزمهم إياها إلزاماً . ولقد اختص الطوفان من هذه الصور بأربعة وثلاثين .

في خلال هذه الأحداث مرت فترة كانت إلى الهزل ، ولكنها كانت ذات أثر بالغ في الإرشاد وحسن التوجيه ، ذلك بأنها تظهرنا على أن محاولة تحوير استنتاجات العلم بحيث توافق مقتضى العقيدة ، قد يضلل التفكير الحر كما يضلل التفكير المقيد بالمقدسيات .

حوالي سنة ١٧٦٠ تراءى إلى فولتير خبر استكشاف حفريات بحرية مطمورة في أصقاع مرتفعة في مختلف أنحاء أوربا . وكان لفولتير مذهب لاهوتي يؤيده ، بالرغم من معارضته الشديدة لكتب العبرانيين المقدسة . ولقد روّعه أن تتخذ هذا الاستكشاف سبيلاً إلى تأييد القصة الموسوية عن الطوفان ، فاستجمع كل قوته البيانية وراح يسخرها في تأليف أدلة وبراهين ليثبت أن تلك البقايا هي بقايا أسماك حملت لتتخذ طعاماً ، فلما فسدت ألقى بها المسافرون في الطريق ، وأن الأصداف الحفرية إنما ألقى بها الصليبيون اتفاقاً لدى عودتهم من الأرض المقدسة

وزاد إلى ذلك أن العظام الحفرية التي عثر بها بين باريس وإيتامب إنما هي بقايا هياكل عظمي خزنها فيلسوف قديم في صومعته. وتتابعت من قلم فولتير الفصول تلو الفصول، مستجيباً لمقتضى الضرورات التي فرض أن مذهبه اللاهوتي يحتاج إليها، ومضى يكافح كل نتائج العلم الجيولوجي التي ذاعت في عصره.

ولكن أشد ما أصاب النصرانية من أضرار التحامل والحقد قد أتى من طريق الإمعان في الجهد مبذولاً من تلك الناحية التي حاولت أن تظهر أن الحفريات إنما سببها طوفان نوح.

لم يقم في فكر المؤيدين للاهوت أن هنالك من فرض أو حيلة أو وسيلة هي من الشدة بحيث تحملهم على تجنبها والاقلاع عنها — إذا هم رأوا أنها حيوية لتأييد نص الإنجيل. وباتخاذ ما جاء فيها من الاشارات العابرة والعبارات الغامضة على أنها الحق الثابت، والاستمساك بأن ذلك الشعر المقدس هو حقائق نثرية لا مبدل لها، وتفسيرها تفسيراً حرفياً حرفاً، أقام أتباع "بارنت" و"وستون" و"وودوارد" رأياً كان له من العلاقة والأثر في علم الجيولوجيا، نفس ما كان لكتاب "قوزماس" — الطبوغرافية النصرانية في علم الجغرافية. وعبثاً ذهبت كل المجهودات التي بذلت في إقامة البراهين الجيولوجية والحيوانية والفلكية على أنه لم يقع من طوفان عام، أو طوفان غمر جزءاً كبيراً من الأرض في خلال ستة آلاف العام المنصرمة، أو في خلال ستين ألف سنة مضين. وسدى ذهب كل ما فعل الأسقف كلايتون وهو من مستنيري أهل الكنيسة في سبيل القول بأن الطوفان لا يمكن أن يكون قد امتد لأكثر من البقعة التي عاش نوح فيها. وكذلك ذهبت جهود غيرهم أمثال الأسقف كروفت والأسقف ستلنجفليت وماتيو بول وهو من المثقفين، في سبيل إثبات أن الطوفان ربما لم يكن عاماً شاملاً

وجه الأرض كله . بل عبثاً ما أظهر الباحثون من أن الطوفان حتى لو كان عاماً شاملاً ، فإن الحفريات لا يمكن أن تكون أثراً من آثاره ولا يمكن أن يكون السبب فيها .

لم يكن هنالك من جواب على هذه الحقائق إلا اللجوء إلى النصوص المقدسة ، وأن كل الجبال الشوامخ التي هي على ظهر الأرض والتي هي تحت الماء قد غمرت . ومن أجل أن يضفي على هذا البحث حصانة دينية أعلن وودورد ومن على غراره من الرجال ، إن محاولة إقامة أي برهان على أن الحفريات ليست من مخلفات الحيوانات التي أغرقها طوفان نوح كفر ومروق من الدين . وبقي الاعتقاد في انجلترا وفرنسا وألمانيا قائماً على أن الحفريات إنما هي تركة خلفها طوفان نوح ، بل ذاعت الفكرة في أن الاستمساك بهذا المعتقد ضروري للخلاص الأخروي .

ولكن العلم ظل يتقدم بخطى متزنة لم يقفه من شيء ، لا قوة الكنيسة ، ولا الرسوم المحفورة البارعة التي زين بها « شوخزر » طبعة الأناجيل ، وبذلك أخذت الأسس التي تقوم عليها النظرية اللاهوتية تتداعى وتضمحل . على أن عملية الهدم كانت بطيئة ولا شبهة . لقد احتاجت عشرين ومئة سنة حتى يتسنى للحقائق كما يبينها الله في الطبيعة أن يجلوها باحثون من طراز هوك وليناوس وويثهرست ودويتون وكوفييه ووليم سميث ، وأن يتسللوا بحقائقهم من وراء تلك الأخطاء المتراكمة والأغاليط المتراصة المتراكبة ، لينشروا رسالة التطور مجلوة في عبارات احترزوا فيها كل الاحتراز حتى لا تستثار اللاهوتية الهوجاء ، وليتهيأ لهم أن يثبتوا أقدامهم في أصول تلك الأوهام . حتى اذا استهل القرن التاسع عشر ، كان العلم قد بلغ من القوة مبلغاً لا يقاوم . وشق الطريق أفذاذ من العلماء مثل فون بوك وبلومنباخ وشولتهيم ، ولكن أثر كوفييه في القارة كان طرازاً وحده . ففي

السنوات الأولى في ذلك القرن أخذت بحوثه في الحفريات تلقي ضوءاً لامعاً على علم الجيولوجيا . ولا شك في أنه كان من غلاة المحافظين ، ممعناً في الحذر والكياسة ، بل انه كان عند قولة فولتير : « من الذكاء يستحب الحذر بعض الشيء » . كان عصره عصر رجعية ، فقد هادن نابوليون الكنيسة ، والعبث بهذه المهدنة معناه الخيانة . ولقد استطاع كوفييه بما اصطنع في التصورات الغامضة الفضفاضة ، أن يرضي رجال اللاهوت ، في الوقت الذي بث فيه ألغامه الثورية في أمنع قلاعهم . ولقد أدرك الخطر بعض المؤيدين للكنيسة . أدركوه بغريزتهم اللاهوتية ، وكان « شاتو بريان » رجلهم الطرازي . ففي كتابه «عبقرية النصرانية» وهو من الكتب المثلى في عصره ، الثانية في عصرنا ، عالج مشكلات الخلق ، معتمداً على المخادعة ، مستمداً من عبارة في «البدء»[1] دليلاً استند عليه في القول بأن الخلق لم يتم دفعة واحدة ، بل بظهورات كانت موجودة من قبل . ولكن الانتصار الحقيقي كان من نصيب «بروبيار» الذي نشر كتابه في الحفريات النباتية سنة ١٩٢٠ ، فأقام به سداً لم يقو على اقتحامه أعداء العلم .

ومع هذا كله لم تنته المعركة ، بل تجدد الأمل في كسبها إذ قام رجل قيادتها «غرانفيل بن» في انجلترا .

قامت نظريته على أساس القول بأن «كرة الأرض قد جرى عليها انقلابان : الأول : الخلق ، والثاني : الطوفان ، وكلاهما حدث بأمر الله وحكمته التي لا ترد» . ومضى يوقن بأن الخلق قد تم في ستة أيام من أيامنا العادية ، لكل منها «مساء وصباح» . واختتم بحثه بعبارات من تلك التي ألفها الناس ، بأن أهاب بكوفييه وغيره من الجيولوجيين أن «ينتحوا المسالك القديمة ويسلكوها حتى يستطيعوا

---

(١) « في البدء خلق الله السموات والارض » سفر التكوين الاصحاح الاول .

مذاهبهم ويرجعوا عما قالوا به من حدوث انقلابات متوالية في سطح الأرض، من القول بانقلابين اثنين أو حادثين اثنين هما الخلق الست[illegible] وطوفان نوح. غير أن الجيولوجيين لم يستجيبوا لهذه الدعوة، بل على العكس من ذلك أعلن رئيس الجمعية الجيولوجية البريطانية، والأسقف "[illegible]" وهو جيولوجي نابه من رجال الكنيسة، إنهما يعترفان بأن اعتناقهما [illegible] على أن يطرحا نظرية أن حفريات العصر الفحمي قد طمرت في طوفان نوح [illegible] أن الطوفان كان شاملاً.

شعر الحزب الأرثوذكسي [illegible] "بكلاند" من أثر ونعمة. ولقد اتخذ من كفايته وأمانته وولائه لمعتقداته الدينية، إذ كان راعياً لكنيسة "كرايست"، وأستاذاً لعلم الجيولوجيا في جامعة "أكسفورد"، سلطاناً ومدداً استخدمهما كاملين في تهدئة زملائه من رجال الدين. في أول محاضرة له، حاول بجهد أن يظهر أن الجيولوجيا تؤيد عبارات الخلق والطوفان كما يذكرها سفر التكوين، وفي سنة ١٨٢٣، وبعد أن أظهرت كشوفه في مختلف الكهوف ما لا سبيل إلى رفضه أو إدحاضه بقدم الأرض بل إمعانها في القدم، كان لا يزال متشبثاً بنظرية الطوفان على ما جاء في كتابه "الآثار الطوفانية" Reliquiae Diluvianae

على أن هذا المرض الحزبي المتأصل لم يعالج بوصفة ناجعة. فأخذت هجماتهم عليه صورة هي إلى السخرية أكثر منها إلى البغض والمقت. ومثل على ذلك هجاء كتبه "شاتلوورث" الذي صار فيما بعد أسقف "شيستر" مقلداً به الشاعر "بوب" في سفره التي هاجم به "نيوتن"، وقد جرى هذا الهجاء على النمط الآتي

(ذات مرة قامت بعض الشكوك عن الطوفان، فلما تصدى لها "بكلاند" صفا الأمر صفاء الطين).

"Some doubts were once expressed about the Flood:
Buckland arose, and all was clear as mud."

عندما غادر « بكلاند » جامعة أكسفورد في رحلة الى جنوبي أوربا ، سمع الأسقف « جيسفورد » يقول متنفساً الصعداء : « حسن . لقد ذهب بكلاند الى إيطاليا ، فحمداً لله إذ سوف لا يأتينا بمزيد من هذه الجيولوجيا » .

خفت العاصفة على هدوئها النسبي وزال بعض الاطمئنان بالتدريج ، فظل « بكلاند » مؤيداً « للنظرية الطوفانية » . ولكن عندما ألقى سلاحه وسلم باستمرار أوار المعركة ، وتبدلت الأهاجي والصور الاستهزائية ، بهجمات عنيفة مريرة ، وانهال عليه من المنابر والصحف سيل من الإهانة والقذف . أما أفظع القذف فقد انصب على سير « شارلز ليل » . وقد رأينا أنه نشر كتابه مبادئ الجيولوجيا في سنة ١٨٣٠ . وما من كتاب كان أمعن من هذا الكتاب حذراً وتلطفاً . جمع فيه مؤلفه جملة المستكشفات التي وصل إليها الباحثون لعهده ، واستخلص منها الاستنباطات الضرورية بأبين سبيل وأثبت منطق . ولذا يعتبر الى الآن من الكتب التي يفخر بها العالم الأنجلوسكسوني — ذلك بأنه أحد الشواخص البينة في طريق الفكر الانساني .

ولكن النزعة في هذا الكتاب كانت بالضرورة مخالفة لتلك الأساطير الكلدانية وغيرها من الخرافات التي راجت عن الخلق والطوفان وانتحلها العبرانيون بعد أن نقلوها عن مدنيات جاورتهم وكانت أقدم من مدنيتهم ، ثم أدمجوها في الكتب المقدسة التي رموا بها الدنيا الحديثة . فكان نصيبه الرفض البات القاطع .

استمسك اللاهوتيون ورجال العلم الذين نهجوا نهجهم بأن الانقلاب من شأن التغايرات الجيولوجية واعتماد « ليل » على الفعل التدريجي الصادر عن علل طبيعية لا تزال تعمل الى الآن ، قد هدد النصوص القصصية في الخلق ولم يترك مجالاً

لتحتمل المعجزات . ولما رأوا أنه قد قضى على فكرتهم الأثيرة في الانقلابات الجيولوجية العظمى التي انتابت سطح الأرض ، وفي الخرافات العديدة ومنها أثر من طوفان نوح ، وأنه أظهر أن الخلق يحتاج الى زمان أطول بكثير من ذلك الزمان الذي يمكن استنتاجه من تاريخات العهد القديم وأنسابه ، انفجر غضب الأورثوذكسية انفجاراً ذريعاً عنيفاً . فهاجمه زعماء الكنيسة الكبار بلا رحمة . وقد غض رجالها في مجال « النبذ الاجتماعي » لأن الكنيسة لم يكن في يدها إذ ذاك أن تفعل به أكثر من هذا .

* * *

ولما لم يجد هذا غير قليل ، اتخذ جانب العلم وسيلة الى تحطيمه ، وأغري به « لاكوفيه » بسلطانه وعنفوانه . ولكنه ظهر غير بعيد أن هذه الوسيلة لا غناء فيها ، لأن المفكرين لم يصغوا « لكوفيه » وأصغوا الى « ليل » . أما كتاب « كوفيه » الذي سماه « نظرية في تكوين الأرض » وهو من كتب الأرثوذكسية المعروفة ، فقد فقد قيمته في اعتبار رجال العلم ، فلم يطبع طبعة ثانية . في حين أن كتاب ليل قد طبع اثنتي عشرة طبعة متوالية . وظل أساساً ركيناً من أسس التفكير الحديث .

ثم إن أشهر بالاعتدال من مبادئ « كوفيه » العالم « فيرهوم » صاحب كتاب « الطوفان الموسوي » الذي ظهر في سنة ١٨٣٧ . وقد ذهب الى أنه من المتعذر أن يكون قد نزل بالأرض أمثال تلك التقلبات المبكرة التي يفرض الجيولوجيون وقوعها ، لأنه من المستحيل أن يقع طوفان « قبل أن تحدث تلك الخطيئة الأصلية » أي قبل خلق الانسان . ولقد عبّر بجمل مثيرة عن أسفه على موقف رئيس الجمعية الجيولوجية والأسقف « بكلاند » من القصور وقلة

الكتب ، معارضاً أولئك الجيولوجيين الذين "يضعون تعاليمهم خاضعة لما أوحي به إلى [illegible] ومسيح ودانيال" .

مع هذا مضى الجيولوجيون ينقبون عن الحق . فإن الجرثومة التي غرسها "وليم سميث" خاصة ، قد نشأها ربيها منظومة كريمة من الباحثين الذين حققوا للعلم نصراً مبيناً . ذلك في حين أن أولئك اللاهوتيين الذين شعروا بأن انتصار العلم على أنه كفران وإلحاد لا يجدي غير قليل ، راحوا يتبعون طرائق خديعة توفق بين حقائق الجيولوجيا وسفر التكوين . ولقد أظهر بعضهم قرائح يقظة ، ونمكن سلطاناً دينياً مجتاحاً ، كان يخمد جذوتهم ويغط من عزمهم ، إذ يدمغهم حيناً بعد حين بأنهم متطرفون خياليون . على أن هذه المحاولات قد تنقضت وتباينت من حيث المرتبة والقيمة . ولكن الحقيقة التي صبتها جميعاً كانت سريتها من السهل أم كثر ، بمسمات تزيد أم تنقص ، فتخرج منها نتائج هي أن البعد عن الحقائق بمقادير متفاوتة . وبالرغم من أن قليلاً من الرجال قد عكفوا على هذه الطريقة متفرقين فإن التسليم وإلقاء السلاح من جانب ذلك الحزب الذي ناهض حقائق الجيولوجيا بأسطورة طوفان نوح ، قد يكون تاماً .

ويستدل على أن هذا التسليم كان كاملاً ، ما رواه الجيولوجي المعروف "دكتور [illegible] كاربنتر" ويحسن بنا أن ننقل هنا كلماته بنصها قال : —

٢

"إنك لتعرف كتاباً ذا قيمة كبيرة هو كتاب "دكتور سميث" المسمى "معجم الإنجيل" ، وإني لأعرف الاعتبارات التي أحاطت بترتيب هذا المعجم فإن فكرة تصنيفه ، والمشرف عليه قد اتجهت إلى أن يتضمن المعجم من حيث النقد الحديث وترتيبه ، ما يطابق روح المحافظة مطابقة شريفة معتدلة . و[illegible] لهم الرأي

على أن لا يعارضنا علم الجيولوجيا ، ولكن القول بشمول الطوفان كان من المبادئ التي تشددوا في الاستمساك بها . فعهد المشرف بالمقال الخاص بالطوفان لعالم ثقة عظيم الكفاية ، فلما وصله المقال ألفى أنه عمن في الهرطقة مغال من التحرر من القديم ، فلم يقو على وضعه في المعجم . ولم يتسع الوقت لكتابة مقال آخر لهذه المادة ، حتى أنك إذا تصفحت هذا المعجم وجدت أن مادة « الطوفان » قد أحالت على مادة فيضان [1] . وقبل أن يصل ترتيب المعجم الى مادة « فيضان » طلب المشرف مقالاً آخر من مصدر ظن أنه من المحافظين الذين ينشدون سلامة الدين . فلما وصله المقال وجد أنه أنكى من الأول وأقذع ، فكتب مقالاً ثالثاً تحدث فيه كل الحيطة ليكون أمين المتجه سليم المغبة . فاذا نظرت في كلمة « فيضان » [2] وجدت أن الكاتب أحالها على مادة « نوح » حيث كتب مقال عهد به الى استاذ ممتاز من أساتذة جامعة « كمبردج » . أتذكر أن الاستقف « كولنسو » ذكره مرة لي فقال : إن كاتبه قد حاذر محاذرة تامة في تحريره حتى أنه أهمل الكلام في هذا الامر اهمالاً تاماً . ومن هنا ترى تحت أية صورة من صور الكبت وقعت الفكرة العلمية وأي جهد بذلت في هذه الناحية من البحث » .

شهد تاريخ هذا الصراع نصراً آخر شبيهاً بهذا ، فإن « هورن » أصدر طبعة جديدة من كتابه « مقدمة الأناجيل » وقد اعتبر كتاب الارثوذكسية المثالي ، فأسقط منه بغير جلبة ولا ضوضاء فكرة اتخاذ الحفريات برهاناً على شمولية الطوفان .

---

(١) كلمة طوفان Deluge تأتي في الترتيب المعجمي قبل كلمة فيضان Flood فأحال المعجم عليها .

(٢) وكلمة فيضان Flood تأتي قبل كلمة نوح Noah فكأن المشرف على هذا المعجم قد أحال « طوفان » على « فيضان » فلما لم يظفر بمقال يطابق وجهة اللاهوت أحال « فيضان » على « نوح » ثم لم يكتب في هذه المادة شيء يخالف وجهة العلم .

وكذلك وقع في أميركا ما يشبه ذلك سنة ١٨٤٤ . فإن أستاذاً من نابغي الباحثين في [illegible] والآداب الإكليريكية في [illegible] الكنيسة البروتستانية الأسقفية ، هو الدكتور « صموئيل ترنر » قد اعتنق [illegible] الحق فاعترف به مثبتاً بذلك أنه جدير بإعجاب أنصاره وشجاعته الأدبية . ومنذ بدء ذلك النزاع القديم واطرحته جماعة عظيمة من الجماعات النصرانية ، [illegible] بعيد ذلك رجلان جليلان من رجال الدين اتصفا بالتقوى والعلم الواسع ، تابعان للكنيسة النظامية الأسقفية ، فأدعيا في « الموسوعة الانجيلية » التي عنيت بإشرافهما ، ملخصاً كاملاً للبراهين الجيولوجية والفلكية والجغرافية الدالة أن طوفان نوح لم يكن شاملاً وإنه لم يشمل رقعة واسعة من سطح الأرض ، ولم يعترض على هذا العمل رجل واحد في أي فرع من فروع الكنيسة الأمريكية

كانت سنة ١٨٦٢ هي الحد الفاصل بين النزعة القديمة وبين الأخذ بالأساليب العلمية من جانب رجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، عندما نبذ « روش » أستاذ اللاهوت في جامعة [illegible] في كتابه « الأعجوبة [illegible] الطبيعية » النظرية [illegible] التي أقرها [illegible]

ولكن على الرغم من أن [illegible] التي اتخذت من طوفان نوح وسيلة لتفسير المتحجرات التي [illegible] قد أخذت في الاحتضار ، فإن روحي من التفكير [illegible]

[illegible] بأن الكنيسة الرومانية [illegible] النظرية القديمة [illegible] بما في المطبوعات ومن فوق المنابر ومن كراسي أساتذة اللاهوت . ولقد دلّ البابا « بيوس التاسع » على [illegible] في مدينة بولونيا سنة ١٨٥٠

وفي سنة ١٨٥٦ هنأ الأب « دورين » لاهوتيي فرنسا على موقفهم الرائع قال : « إنهم بفروضهم لا يزالون يتمسكون باستمداد الفكرة في الحفريات من طوفان نوح ». وفي سنة ١٨٧٥ نشر الأب « شوابيه » في باريس وفي « أمير » متناً رحب به رجال الكنيسة أعظم ترحيب وأجازوه بصدق عقيدة ، وقد نحى فيه مثل ذلك المنحى . وفي سنة ١٨٧٧ نشر الأب اليسوعي « برستريو » في « ماينس » مقالاً عنوانه « الجيولوجيا والطوفان » ، جهد أن يرد الدنيا إلى الوراء بأن يحمل الناس على الاعتقاد في الحل القديم لتلك المشكلة العلمية ، جانحاً إلى القول طبعاً إلى أن أيام الخلق إنما هي أحقاب متطاولة ، ولكنه كفر من إجازة هذه ... بعبارات السحرية التي رتبها « دورين » .

وفي سنة ١٨٦٩ قال « مكاريوس » رئيس أساقفة الكنيسة الروسية الرومية في لتوانيا بضرورة الاعتقاد في أمرين : هذا الخلق في ستة أيام عادية وفي طوفان نوح ، وأنهما السبب في كل الأشياء التي يحاول علم الجيولوجيا تبيانها . وبعد ذلك بسنين أي في سنة ١٨٧٦ قام لاهوتي نابه من نفس الكنيسة وذهب لأبعد مما ذهب صاحبه ، فأنكر على المؤمنين أن يعتقدوا بحدوث أي تغيير منذ ذلك « البدء » الذي ذكره سفر التكوين ، عندما نضدت طبقات الأرض وخططت ثم صنعت ، ورصعتها يد الله بالحفريات في خلال ستة أيام عادية .

في الفرع اللوثري من الكنيسة البروتستانتية تجاوبت الأصداء بمثل هذا المعتقد . قال « كايل » أستاذ جامعة « دوربات » الذي نبه ذكره في التفسيرات الانجيلية ، ألف مقالة نشرها في سنة ١٨٦٠ حكم فيها بأن علم الجيولوجيا قد ارتد عقيماً ، وأن تعليلاته قد سقطت بحكم حقيقتين كبريين : الأولى — اللعنة التي طردت آدم وحواء من الجنة ، والثانية — الطوفان الذي قضى على جميع الأحياء ما عدا نوحاً وأسرته

والحيوانات التي حملها في الفلك . وفي سنة ١٨٦٧ تقدم « فيلبّي » وتبعه « ديتريش » في سنة ١٨٧٠ ، وكلاهما لاهوتي ذائع الصيت ، فأتحيا ذلك المنحى ونحيا ذلك المتجه في المانيا ، وحاول ثانيهما أن يضرب العلم والعلماء ضربة تردها الى حظيرة الدين ، فقال عبارته المشهورة « إن من حق علم الجيولوجيا أن ينظر فيما هو كائن ، لا في مناشيء الاشياء » . وهي عبارة رنانة ولكنها خاوية كالقصبة الجوفاء

وحتى سنة ١٨٧٦ كان « زوجلر » من مؤيدي هذا المتجه ، واجتمع عليه لفيف من اللاهوتيين أقل منه شأناً ، وأخذوا يبشرون به الناس من فوق المنابر وفي الصحف لعلهم يقسرون التفكير على الأخذ بما يضاد العلم ، فلم يكن لعملهم هذا من نتيجة اللهمّ إلاّ ان تزداد الشكوك التي تساور المفكرين في النصرانية ، وبخاصة بين ناشئة الشباب الذين فقدوا كل ثقة في قضية هذه براهينها وحدودها .

ذلك بأنه في حوالي ذلك العهد أُصيب المتجه التقليدي في الطوفان بضربة ثالثة ، وبطريقة لم تكن متوقعة . فان بحوث « جورج سميث » في الألواح [illegible] أشور نفسها ، قد كشفت بما لا يترك مجالاً لشك أو ريب ، أن كثيراً من الأقاصيص التي يتضمنها سفر التكوين ، إنما هي في أصلها أساطير وخرافات كلدانية قديمة تكيفت وحل بها بعض التغيير

ولم يقم البرهان على ذلك فيما يختص بأقاصيص الخلق وهبوط الانسان ، بل قام أيضاً على الطوفان بصورة واضحة قاطعة . أما اللوحان الحادي عشر والثاني عشر وهما اللذان يتضمنان أهم هذه النقوش ، فقد ظلا سليمين تقريباً ، وهما يتضمنان أساطير سجلت في الحجر خلال زمن أوغل بكثير من عصر موسى قدماً ، وتتناول فيما تتناوله أشياء جديرة بذي الانسان اذ كان في طفولته ، فتذكر بناء الفلك

للفكاك من الطوفان ، والعناية بنوح وحده ونجاة انسان تحبه السماء ، واختياره وأخذه في السفين من كل ضروب الحيوان زوجين اثنين ، ثم قفل باب الفلك وارسال أفراد من الطير عندما أخذ الطوفان يتناقص ، وتقديم القرابين والاضحيات عند ما غاض الماء ، وفرح « الموجود القدسي » الذي صنع الطوفان عندما استنشق ريح القربان بمنخريه . ذلك في حين أنه في خلال هذه الأسطورة قد أضفى على العدد « سبعة » وهو العدد المكرم في القدس من القدسية والاحترام ، ما تقع على مثله في أساطير سفر التكوين وفي الكتب العبرانية المقدسة جميعاً .

تبع ذلك ظهور باحثين تناولوا في البحث واستماتوا في سبيل العلم من أمثال «سايس» في انجلترا و «لينورمان» في فرنسا و «شرادار» في ألمانيا ، واتبعوا جميعاً نفس الطريق الذي سار فيه « جورج سميث » فكانت نتيجة بحوثهم أن نبذت الأسطورة العبرانية في الطوفان ، تلك الأسطورة التي عمل اللاهوتيون خلال أزمان متلاحقة على أن يلزموا البحوث الجيولوجية إقرارها ، حتى لقد رفضها في تؤدة [illegible] الخرافة ودنيا الأسطورة .

قامت محاولات متفرقة لتبدد من قوة هذا الكشف العظيم ، ولقد اتضح أن الخوف من ذيوعه ونشره في الناس ، قد أثر تأثيراً حقيقياً في سلطان رجال الدين النصراني وحدّ من عنفوانه .

ومع كل هذا فان انتحال الأساطير الكلدانية وبثها في تضاعيف المقدسات العبرانية ، هو أحد البراهين الدامغة على قيمة الأناجيل النصرانية من حيث دلالته على نزعة تقدمية نشأت في الانسان . فإن الأسطورة الكلدانية تعزو حدوث الطوفان أول شيء الى الشهوة المطلقة لإله بعينه من بين عديد من الآلهة هو ( بعل ) . أما القصة العبرانية فعبارة عن تكييف لهذه الأسطورة عزي به الطوفان

الى العدل الصمداني والسمو الروحي مستنتجين عن إنه واحد . وهذا يظهرنا بصورة قاطعة على درجة من التطور أرقى نسبيا وأنبل عاطفة ، إذ في تلمس سبباً دينياً لتبرير مثل هذه الكارثة العظمى .

ومما يبعث على أشد الأسف أنه حتى بعد أن بلغ العلم هذا المبلغ ، فإن سياسة إنكار مثل هذه الموحيات العقلية الجديدة كانت عامة على وجه التقريب ، اللهم إلا إذا استثنينا فئة قليلة من ذوي التفكير الحر من رجال الدين ، أما السبب في جمود هذه النزعة في بلدان الكثلكة الرومانية وبلدان البروتستانتية على السواء ، فلا يعوزنا العثور عليه الى كثير من الجهد . ولا حاجة لنا هنا بأن نمضي في التعريف بالحالة التي كان عليها فكر الأوساط من الناس في فرنسا وإيطاليا . أما في ألمانيا ، فعلينا أن نذكر حقيقة مثالية هي أنه في سنة ١٨٨١ لم يكن في كنائس برلين من الوسائل إلا ما يتسع لاثنين في المئة من مجموع سكان المدينة ، بل كانت هذه الوسائل أكثر من الحاجة . لا تدل هذه الحقيقة بطبيعة الحال على اضمحلال الروح الديني عند الشماليين من أهل ألمانيا ، فإن المعروف أنهم متشبعون بالتدين والروح الديني على أشده بينهم . ولكن السبب في ذلك راجع في الأكثر الى أن حقائق العلم البسيطة تسربت الى نفوس الناس وتشربتها عقولهم ، في حين أن الحزب الغالب في الكنيسة اللوثرية قد ظل يرفض هذه الحقائق ، ومضى يفرض على الناس ضرورة التفسير الحرفي للنصوص المقدسة ، ويلزمهم التزاماً عقيدياً بها . وتلك نزعة كان العقل الألماني قد شب عن طوقها وأفلت من أصفادها . ولا شك في أن ذلك سوف يكون نصيب كل جماعة ينتحي فيها رجال الدين هذا المنحى ويتبعون مثل هذا الأسلوب . ولا مشاحة في أن هذا يحز في قلب كل مفكر مهما كانت نزعته الدينية . وأن هيئة دينية مستنيرة مفكرة تقية ، هي في كل مكان وحيثما تكون ، نعمة ورحمة .

إسماعيل مظهر